

صورة الآخر في رواية "مقدسية أنا"

محمد دوابشة وزهور دوابشة*

تلخيص:

ينهض هذا البحث بدراسة صورة الآخر في رواية علاء مهنا "مقدسية أنا"، إذ يركز على الصورة بتجلياتها المختلفة، الإيجابية والسلبية، كما أظهرتها الرواية، مبينا الأبعاد النفسية والاجتماعية التي تعكسها طبيعة الصورة في الواقع الذي يعيشه الشعبان الفلسطيني والإسرائيلي على الأرض الواحدة كم يراها الكاتب. كما بينّ البحث أن الصورة المرسومة ذهنيا عن الآخر كانت المسيطرة على فكر الكاتب خلال الزمن الكتابي للنص، في حين جاءت الصورة المستوحاة دلاليا قليلة، وجاءت على هامش النص الروائي، مما يعني أن الصورة في الحضور الذهني عند الشعبين وعن الشعبين تكاد تكون محضرة مسبقا.

تقديم:

يعد علاء مهنا من الأدباء الشباب الصاعدين نحو الفكر الواعي، يظهر ذلك بشكل واضح في الرواية المدروسة "مقدسية أنا"، وهي أول عمل أدبي ينجزه المؤلف. وقد فازت هذه الرواية بجائزة عبدالمحسن القطان في حفل الرواية عام 2009. وهو من مواليد قرية البقيعة الجليلية عام 1981، ويبلغ من العمر 33 عاما، ويحمل اللقب الأول "البكالوريوس" من الجامعة العبرية في دراسات الإسلام والشرق الأوسط، عمل معلما للغة العربية في القدس الشرقية في حي الشيخ جراح.

ملخص الرواية:

تقع الرواية في 325 صفحة من القطع المتوسط، وصدرت الطبعة العربية الأولى منها عام 2011 عن المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع في عمان ومؤسسة عبدالمحسن القطان في رام الله. وقبل أن أقدم ملخصا للرواية، أود عرض بعض الملاحظات على هذه الطبعة، منها على

* الجامعة العربية الأمريكية – جنين.

سبيل المثال: عدم وضوح الكتابة للقارئ، كما هو الأمر في الصفحات: 33، 36، 45، 48، 49، 52-53، 56-57، 64، يضاف إلى ذلك سوء استخدام علامات الترقيم وتوظيفها، وهذا واضح في أكثر من مكان، إضافة إلى وقوع الكاتب في بعض الأخطاء النحوية والمطبعية في الرواية، كما هو الأمر في الصفحات: 180، 184، 202. والملاحظة الأخيرة حولها، أن موضوعها مطروق من قبل، فقد تناول سميح القاسم في قصته " الصورة الأخيرة في الألبوم " كثيراً مما طرحه علاء مهنا في روايته، وأراها قصة سميح القاسم مع شيء من التطوير الأيديولوجي، كونها تنتهي إلى الجنس الروائي.

تتناول الرواية قصة طالبة مقدسية تدعى عائشة، هي الوحيدة لوالديها، تدرس في الجامعة العبرية، وتعمل في مقهى بجوار الجامعة، تضطر إلى السكن في سكن الطلاب. هي فتاة مثقفة ومتمردة، تحاول الاعتماد على ذاتها، وتشارك في المظاهرات الوطنية في الجامعة، وهي اجتماعية كذلك، فلها علاقات مع شبان يهود وعرب، كما تبدو متأثرة برواية "كنديد" لفولتير، وتقرأ الشعر لمحمود درويش وأدونيس. تقع عائشة في حب شاب درزي يدعى إبراهيم الببادر، تتردد على غرفته وكانت تأمل في الزواج منه.

تبرز الرواية العلاقات الطائفية: الدرزية والمسيحية واليهودية والإسلامية، وتجري معظم أحداث الرواية في مدينة القدس وفي الجامعة العبرية، والقرية التي تقع خلف الجدار، إضافة إلى قرية البقيعة الجليلية. أما زماها فيمتد بين شهر تموز 2002 وشهر تموز 2008. وبالتالي فإن زمن أحداثها قريب من زمن كتابتها. أما لغتها، فقد مزجت بين الفصحى والعامية، وقد شاركتها اللغات الإنجليزية والعبرية خلال الحوار، في محاولة من الكاتب لمقاربة الواقع إلى أقصى درجاته، وبالتالي أرى أن الرواية عبارة عن سيرة ذاتية لكتابتها، أو كما جاء في نهايتها "مجرد قصة فتاة من فلسطين".

مفردات الدراسة:

ستتناول الدراسة المفردات التالية:

- صورة الآخر (اليهودي).
- صورة الذات العربي.

- صورة الذات اليهودي.
- صورة الآخر (العربي).

المنهجية:

اعتمد الباحثان على المنهج الوصفي التحليلي؛ كونه أقرب المناهج لدراسة الموضوع، مع الاستفادة من المناهج الأخرى.

الدراسة:

بعد هزيمة حزيران أصبحت صورة اليهودي حاضرة بشكل لافت للنظر في الأدب العربي عامة والأدب الفلسطيني خاصة، من خلال العلاقات المباشرة بين الطرفين على المستويين الإيجابي والسلبي، وكان حضور اليهود في الفن الروائي الأكثر حظاً من فنون الأدب الأخرى؛ لأن الرواية هي "الفن الأرحب استقطاباً للأطراف المتصارعة والشكل الأكثر قدرة على ترجمة أشكال الصراع وأدواته"¹، كما أنها تعد "الوعاء الأنسب للمرحلة التاريخية للمرحلة التي نجتازها اليوم"². وبالتالي فقد أخذت العلاقة مع الآخر تلونها من خلال حضور الشخصيات اليهودية في الرواية. فقد تناول بعض الكتاب في العصر الحديث مفهوم الآخر في الأدب³، كما عقدت لذلك مؤتمرات⁴، وهذا هو هدف هذا البحث، وهو إبراز صورة الآخر في رواية "مقدسية أنا". فقد أنجز كثير من الكتاب مؤلفات بحثت في صورة الآخر في الأدب العربي⁵

¹ يورتو، ميشال، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد انطونيوس، بيروت، ط 3، 1966، ص 7.

² ماضي، شكري عزيز، انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1978، ص 7.

³ ينظر، خضر، حسن، مفهوم الآخر "دراسات في الأدب الإسرائيلي"، وزارة الثقافة الفلسطينية، 1995.

⁴ مؤتمر ثقافة الصورة، جامعة فيلادلفيا الدولي الثاني عشر، 2007.

⁵ ومن هذه الدراسات:

- مزعل، غانم، الشخصية العربية في الأدب العربي الحديث، القدس، 1985.

- دومب، ريزا، صورة العربي في الأدب اليهودي 1911 - 1948، ترجمة عارف توفيق عارف، عمان، 1990.

وبخاصة اليهود، وعالجت هذه المؤلفات موضوع الصورة بأبعادها المختلفة. وتكاد تكون الرواية المجال الأرحب لعرض صورة اليهودي بجوانبها كافة؛ لما تمتاز به من ميّزات عن الفنون الأدبية الأخرى. فقد تناول كثير من الأدباء الفلسطينيين والعرب صورة اليهودي في رواياتهم، مثل: غسان كنفاني في روايته "عائد إلى حيفا" 1969، وإلياس خوري في روايته "مملكة الغرباء" 1993 وممدوح عدوان في روايته "أعدائي" 2000، فالموضوع ليس جديداً في الأدب العربي أو الفلسطيني، وإنما هو قديم جديد، ربما يكون قد تجدد بفعل الظروف المتغيرة، التي أُلقت بظلالها على الأدب.

وربما يكون ما أشار إليه عادل الأسطة في دراسته "اليهود والعلاقة معهم في نصوص مرحلة السلام" خير من يمثل هذا التغيير، وكذلك فإن الدراسة التي أنجزها المتوكل طه عن "صورة الآخر في الشعر الفلسطيني 2005"، تمثل تحولا جذريا في النظرة إلى الآخر، فقد تحولت الصورة من صورة العدو والكيان والغاصب - بفعل التغيرات السياسية - إلى الآخر، ثم انظر في وقع الكلمتين على أذن السامع ودلالاتهما، "ولا يعود هذا التغير إلى اختلاف وجهات نظر الكتاب في الكتابة عن اليهود وحسب - وإن كان هذا أمرا لا يمكن تجاهله - وإنما يعود في جزء كبير منه إلى الواقع الذي نشأ عن تأسيس دولة إسرائيل من ناحية، وإلى التغيرات التي شهدها الحياة السياسية في العالم العربي من ناحية ثانية"¹. ورد في الرواية صور قليلة لليهود، منها ما هو إيجابي ومنها ما هو سلبي.

- عبدالغني، عمر، الفكر الصهيوني بين التصور النمطي والتصوير الفردي في الأدب العبري الحديث، القدس، 1991.

- الأسطة، عادل، اليهود في الأدب الفلسطيني بين 1913-1987، اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، 1992.

¹ الأسطة، عادل، اليهود في الأدب الفلسطيني بين 1913-1987: ص 55.

صورة الآخر (اليهودي):

• الصورة السلبية:

يعرف الكاتب عن اليهود وفكرهم الكثير؛ لأنه يعيش بينهم ويعمل بطريقة أو بأخرى تحت رايهم، فقد أورد رأيه في اليهود على لسان السارد/عائشة وفي أكثر من مكان. ولعل أول شخصية يهودية ترد في الرواية، هي شخصية رئيس الحكومة الذي زار الجامعة العبرية يوم مجزرة غزة، وألقى محاضرة فيها وأعرب عن أسفه لهذه الحادثة¹، وقد نعتته عائشة بابن الكلب². كما أبرزت الرواية طريقة تعامل الشرطة مع العرب -اليهود المتضامنين معهم- في المظاهرات، فقد أبرزت الرواية صورة الشرطة خلال تفريق المتظاهرين احتجاجا على مجزرة غزة "هجمت علينا الشرطة خلال لحظات، كان بعضهم يوجهون الضربات إلى الأرجل والبعض الآخر يعتقل من يشاء..."³، كما أطلقت عائشة على الشرطي "ابن الزانية"⁴، وهي كلمة لها مدلولها في الفكر العربي، كما وصفته تغريد بأنه "فاشي قدر"⁵. يجب أن تكون علاقة الشرطة بالناس علاقة جيدة، فالأصل أن تقدم الشرطة الخدمة للشعب، من باب المقولة السائدة "الشرطة في خدمة الشعب"، ولكن أي شعب هو المقصود هنا، يبدو أن الشعب الفلسطيني يختلف عن بقية الشعوب، فالأمر هنا مختلف جدا، فالشرطي الذي وظيفته حماية الناس، كان قاسيا جدا في تعامله مع عائشة خلال المظاهرة "... حملني الشرطي وزتني على الرصيف..."⁶، ليس هذا وحسب، ولكننا نرى السلوك الأكثر عنفا عندما دخلت الشرطة الخلوة، "...اقتحمت قوات الشرطة قرية البقيعة بعد منتصف ليلة البارحة مع 300 شرطي من القوات الضاربة الخاصة..."

¹ الرواية، ص 20

² السابق، ص 22.

³ الرواية، ص 33.

⁴ السابق، ص 23.

⁵ السابق، ص 23، 103.

⁶ السابق، ص 49.

استعملت الشرطة السلاح الحي...¹، كما نعتهم بالأوباش²، والشرطة تتحكم في أرزاق العباد، وحتى الأطفال منهم، فالشرطة تصدر كميات الكعك القليلة من يد الطفل الذي كان يحاول بيعها في القدس وذلك أمام الجنود وبمساعدهم³.

ولكن الشرطة التي تنتسب لدولة قوية، نرى قوتها تذهب أدراج الرياح أمام العمل الجماعي العربي المشترك، فعندما دخلت الشرطة الخلوّة وألقت في داخلها غازا مسيلا للدموع⁴، رأينا -حتى غير المتدينين- الكل يدافع عنها باستبسال، حتى أن صافي قال لتغريد: "...أنا أموت على عتبة الخلوّة قبل أن أسمح لفاشي قذر أن يدنس حرمتها، قالت تغريد: اللهم قوي إيمانك، لم أكن أعلم أنك غيور على الدين بهذا الشكل، قال: أيتها الحمقاء، إنها قضية كرامة...⁵، وكذلك فإن "... عشرة أفراد من الشرطة، ركعوا في ساحة العين ورفعوا أيادهم على رأسهم مستسلمين...⁶، فالعمل الجماعي هو المطلوب في مثل هذه المواقف، وهو الذي دعا إليه غسان كنفاني في روايته "رجال في الشمس": لأن الحلول الفردية غالبا تؤدي إلى الفشل في مثل هذه القضايا. كما تعترض عائشة ومن خلفها الكاتب على طريقة معاملة وزيرة الخارجية وتصفها بالحمقاء، وتضيف "... لا بد أن نعلمها درسا في التاريخ والأخلاق...⁷، عندما أرادت منهم أن يمحو كلمة نكبة من قاموسهم اللغوي. كما ترد صورة الجندي السلبية من خلال الجندي الدرزي ابن عم إبراهيم "... ويستطيع ابن عمك

¹ السابق، ص 105 وينظر: ص 295-296.

² السابق، ص 107، وينظر: ص 298.

³ السابق، ص 193.

⁴ السابق، ص 106.

⁵ الرواية، ص 234.

⁶ السابق، ص 108.

⁷ السابق، ص 209.

الجندي أن يدخل بيتي وأن يرفع بندقيته في وجهي ويعتقل خالي ثم ينصرف، مدنسا حرمة البيت...لن أدخل وأجلس معه"¹.

كما ارتبطت صورة الجندي في الرواية بجيش الدفاع وأعماله مع الناس، وهذا شيء طبيعي ومنطقي، فهو أحد عناصره ولا يستطيع الفكك منه، فصورة الجنود الذين يدخلون ويقتحمون البيوت الفلسطينية، تكاد تكون نمطية وتقليدية، إذ يقومون بالتفتيش والاعتقال وعددهم كبير جدا ولا يسمحون لأحد بالكلام، وهذه الصورة جاءت في الرواية عندما دخل الجنود لاعتقال خال عائشة "... وإذا بالجنود يدخلون من البوابة ويتمركزون في الساحة عددهم كبير جدا... انقسم الجنود قسمين...ثم صاح جندي في مكبر الصوت المركب على الجب: نحن جيش الدفاع الإسرائيلي الأقوى منكم..."². إن الصورة السلبية التي وصفها شخصيات الرواية لليهود، كانت صورا نمطية تقليدية، يعرفها الجميع، خاصة الذين يعيشون في هذه البلاد. ، وبالتالي لا جديد فيها، فلم يتعمق الكاتب في داخل الشخصية اليهودية ويحاول فهم نفسياتها كما فعل سميح القاسم في "إلى الجحيم أيها الليلك" 1977، كما نلاحظ على الرواية أن العداء لم يتخذ الطابع العدائي ولم نشعر بقسوة الآخر من قبل الطبقة المثقفة والمتعلمة، وربما يرجع ذلك بسبب معاشة الكاتب لهذه الطبقة مما كان له الأثر في اكتشاف أفكاره ومواقفه.

إن المتتبع للعلاقة بين الأنا والآخر في الرواية الفلسطينية يلاحظ أن تغيرا ملموسا من منظور الروائي الفلسطيني تجاه الآخر، كما يلاحظ تطورا في موقف الإسرائيليين وبخاصة المثقفين منهم تجاه القضية الفلسطينية³، فقد حاول بعض الكتاب الفلسطينيين تقديم صورة يهودية غير نمطية بعد نكسة 1967، ومنهم غسان كنفاني في روايته "عائد إلى حيفا" الشخصيات اليهودية إلا أن هذه الريادة لغسان "لم تزودنا بصورة يهودية مقنعة، بل

¹ السابق، ص 216.

² السابق، ص 101.

³ زعرب، صبحية، الشخصية اليهودية الإسرائيلية في الخطاب الروائي الفلسطيني 1967-1997، عمان.

ط 1، 2006، 110.

جاءت لتعبّر عن أفكار مسبقة، وكانت طرفاً في حوار مقصود، ولم تكن مخلوقة من صميم الحياة وإفرازاتها وتعقيداتها¹.

تعبّر عائشة/ السارد، ومن خلفها الكاتب، عن رأيها في اليهود، وهذا الواقع بينهما، علماً أنها تعلم أن اليهود لا يحبون الخير للعرب، ومع ذلك هذا واقع مفروض عليهم، ويبدو موقفها أقرب إلى الاستسلام، تقول "... أنا أحلم بالحق، لكني لا أريد أن أرمي أحداً في البحر حتى لو ظلمني، هذه البلاد فلسطينية عربية من المياه إلى المياه، ولكن الواقع أقسى مما نتصور..."²، وهذا يتناقض مع شخصيتها القوية الثائرة، وهذه العبارة لفتت نظر وليد أبو بكر، إذ اعتبرها رواية تطبيع "... في هذه الرواية دعوة صريحة إلى الذوبان في الواقع الإسرائيلي، اجتماعياً وثقافياً وسياسياً، وهي تبتّ روحاً انهزامية لا لبس فيها، حتى وإن حاولت تغليفها بشيء من الدعوة إلى الانفتاح أو التحرر، ومن هذا المنطلق اختارت الجامعة العبرية مكاناً لأحداثها، وطالبات الجامعة وطلابها شخصيات فيها، من عرب ومن إسرائيليين، وخلطت المجموعات غير المتشابهة في ثقافة متشابهة، هي ثقافة الاحتلال السائدة، والتي يتبناها الراوي الفلسطيني بشكل كامل، ويدعو لها، وينتقد من يجادل فيها، وخلال ذلك يتنازل عن كل شيء له علاقة بانتمائه القومي والثقافي..."³، وهذا واضح في الرواية على لسان أحلام "... أنا ضد العنف بشكل مطلق وعلى الأخصّ ضد العنف على المدنيين..."⁴، علماً أن أحلام تعلم أن علاقتها مع داني اليهودي- المتعاطف مع الفلسطينيين - نهايتها الفشل⁵.

نلاحظ أن الراوي/السارد، وهو سارد كلي المعرفة، يفرغ أحياناً ما وعته ذاكرته من المخزون الجمعي عن اليهود، ونظرة العرب لليهود، فقد أورد عن -عن قصد أو دون قصد- إعجابه

¹ عودة، علي محمد، دراسات في الرواية الفلسطينية، القاهرة، ط 1، 2010، ص 74.

² الرواية، ص 207.

³ أبو بكر، وليد، جريدة الدستور، 14-9-2012.

⁴ الرواية، ص 315.

⁵ السابق، ص 35.

بهم وبعقليتهم وبعلمهم، فعائشة تجيب المرأة التي سألتها، هل تدرسين في الجامعة العبرية؟ قلت: أدرس تاريخ إسلام عند اليهود، شو رأيك؟ قالت مستحيل اعلموا تاريخ إسلام¹، والعلاقة المنطقية تقول إننا يجب أن نعرف أكثر من أي أمية عن ديننا وتاريخنا، وهذا هو ديدن كل شعب وكل أمة، الأصل أن تعرف عن دينها وتاريخها أكثر من أي شعب آخر، فالتاريخ والدين جزء من تكوين نسيج الأمة، ولكن الواقع يقول إن اليهود يعرفون عنا وعن بلادنا وديننا أكثر مما يعرفه العرب عن أنفسهم وعن بلدهم كما قال الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر في أحد خطباته، ولعل هذا من أسباب هزائم العرب المتتالية معهم، ولعل تفوق القوة والعلم، هو الذي جعل الكاتب وليد أبو بكر يجزم بأنها رواية تطبيع "... في رواية علاء مفيد مهنا، «مقدسية أنا»، أكثر الروايات الفلسطينية دعوة إلى التطبيع، دون مواربة أو تحفظ..."²، تجسد الشخصيات الروائية التي صورها السارد/عائشة، ومن خلفه، علاء مهنا/الكاتب، أفكارا خاصة، يتبناها الكاتب ويدافع عنها، فقدوم المطربين والمثقفين العرب إلى فلسطين

بعد ختم جوازاتهم بالختم الإسرائيلي، ربما يعد تطبيعا مع الاحتلال عند كثير من الناس، ولكن عائشة ترى أن قدوم سعاد ماسي (الجزائرية) إلى فلسطين، لا يعد تطبيعا مع الاحتلال، وتدعو المثقفين العرب أن يأتوا إلى فلسطين، ويتواصلوا مع أهلها ثقافيا "... سوف تختم إسرائيل جواز سفركم لكنكم ستقومون ببعث التفاؤل في قلوب الناس ستساعدونهم وقد تستطيعون إطعام كل الأطفال الجائعين..."³.

كما يفرض الوعي الجمعي - عن اليهود - نفسه في الرواية، فالاحتلال قوي، فقد راح خال عائشة يضرب به المثل في القوة، دون أن يعلم، فمقولته لعائشة وفلسطين، عندما أراد

¹ الرواية، 190-191.

² أبو بكر، وليد، جريدة الدستور، 14-9-2012.

³ الرواية، ص 244.

الاحتلال هدم البيت "... أريدكن أقوى من الاحتلال..."¹، وهذه عبارة لها مدلولها في ذهن الفلسطيني.

وبالتالي أرى أن الكاتب أراد أن يمهد للقضية التي ذكرها وليد أبو بكر، وهي أن الرواية تدعو للتطبيع؛ لأنه لا مجال للمقاومة، فالاحتلال قوي، وأكبر دليل على ذلك هدم بيت عائشة، الذي كان مرخصا حسب الأصول²، وهدمه ليس شرعيا³، ولم يعط أصحابه إنذارا مسبقا⁴، حتى المحامي الذي يملك كل الدلائل على صحة امتلاك هذه العائلة للبيت، لم يستطع أن يفعل شيئا⁵.

كما تقرّ عائشة - الثورية المتمردة والمناضلة - في نفسها أن هذه المظاهرات لا تقدم ولا تؤخر، فهي صراخ لا يؤتي أكله "... صحيح سنلعلع، في النهاية سيمهدمون البيت وسينتهي كل شيء..."⁶، وهذا ما حصل بالضبط، فقد انتهت المظاهرة وبقي الاحتلال قويا، وأرى أن هذا ما يريد أن يكرسه علاء مهنا في روايته، وهو أن الحياة هنا للأقوى، والقوي هنا هم اليهود، حتى أنه لا يمكن التعايش معهم، فعائشة، تتساءل، كيف يمكن لها أن تتعايش مع الاحتلال الذي هدم بيتها وقتل أباه "...كيف يريدوني أن أتعايش معهم؟ ماذا يريدون أن أكون؟ مجردة من كل شيء؟ لا سقف لي لأنام تحته ولا شيء، يريدوني معدومة، لا لشيء إلا لأنني فلسطينية⁷، وهي تقر للحياة إما لها أو للاحتلال، وبالتالي هي ستقاوم حتى تموت أو يموت الاحتلال⁸، فلا مكان هنا لل اثنين معا.

¹ السابق، ص 277.

² الرواية، ص 272.

³ السابق، ص 290.

⁴ السابق، 280.

⁵ السابق، ص 290.

⁶ السابق، ص 263.

⁷ السابق، ص 294.

⁸ السابق، ص 276.

تبرز الرواية كذلك كره عائشة للاحتلال من خلال كثير من العبارات، ومنها: لعن الله الاحتلال، والاحتلال مرتبط بالدمار والهدم، ولعل أبرز صورة سلبية أوردتها الرواية للاحتلال، عندما أقدمت على هدم بيت حامد زين العابدين، بيت عائشة، بدءاً من الإعلان الذي وضعته بلدية القدس على باب البيت¹.

حتى هدم خمسة بيوت أخرى، بما تحويه هذه البيوت². كما برز فكر الصهيونية وأثرها في الرواية، فانقسام العرب والدروز والمسيحيين والمسلمين يعود إليهما، حتى أن الجنود الدروز الذين يذهبون للجيش هم ضحاياها "... والشباب الدروز الذين يذهبون إلى الجيش هم ضحايا المشروع الصهيوني..."³.

الصورة الإيجابية:

إن تصور الروائيين الفلسطينيين للآخر قد تغير؛ نظراً لتغير أدوات الصراع وأدواته، فقد كان يوصف اليهودي بالمرابي قبل سنة 1967، ولكن بعدها قلما نجد هذه الكلمة، بل على العكس نجدهم "مخلصون" و"أذكاء" و"يعرفون ما يفعلون"⁴. والمتفحص في الرواية يلاحظ الصورة الإيجابية اليهودية في أكثر من مكان، مثل: فقد انضم كثير من اليهود إلى المظاهرة أمام الجامعة العبرية، احتجاجاً على مجزرة غزة، فكان الجميع ينشدون شعارات تندد بالاحتلال وجرائمه⁵، فقد اقترحت أحلام أن يتقدم الرفاق اليهود المظاهرة، وأن يكونوا في الصفوف الأولى عندما أراد الاحتلال هدم بيت عائشة⁶.

وكذلك نرى صورتين إيجابيتين بارزتين لليهود، وكلاهما شخصية متعلمة، الأولى: بروفيسور التاريخ ج. قدير جدا، وأرى أن اختيار شخصية تحمل أعلى درجات العلم في

¹ الرواية، 277.

² السابق، ص 233.

³ جويدي، امثال، شجرة الصبير، بيروت، ط 2، 1975، ص 100، 101، 102.

⁴ الرواية، ص 21.

⁵ السابق، ص 288.

⁶ السابق، ص 113.

التاريخ، وليس في تخصص آخر، لم يكن عبثاً، وربما يكون إشارة إلى أن هذا هو الذي يعرف الحقائق التاريخية حول هذه البلاد، فهو شخصية متعلمة، ولا يسمح للعنصرية في محاضراته "... أنا لن أسمح بأي عنصرية في صفتي..."¹، ونرى إصراره على المنطق السليم والمنهج العلمي المتبع، فعندما تنازل إبراهيم عن حقه في تقديم الطالب للجنة تأديبية، ولكن المحاضر قال "... أما أنا لن أتنازل عن حقي..."².

أرى ان الكاتب يسلط الضوء على اختلاف الرؤية بين الجيلين القديم والجديد، لذلك لا نستغرب موقف إبراهيم، إذا عرفنا الظروف القاسية التي ألمت به، كما أن شخصية ق. ج تتطور وتتكامل عندما يمنحها الراوي موقفاً متمرداً على حياة اليهود. وعائشة معجبة بهذا الشخص؛ وتتمنى من الله أن يحفظه³، وأرى أن الذي جمع بين أفكار عائشة وأفكار هذه الشخصية، أن كلا منهما يكره الصهيونية، والملاحظ على شخصية البروفيسور ج. ق، أنه ناظم على الجامعة التي يعمل فيها، حتى أنه يريد أن يجعل منها سجناً⁴.

أما الصورة الإيجابية الأخرى لليهودي في الرواية، فقد كانت صورة داني، فتكاد صورة داني اليهودي المتعاطف مع العرب تحتل مكاناً واسعاً بفكره وعمله في ذهن السارد ومن خلفه الكاتب. فهو نشط جداً، لا يشارك في المظاهرات فقط بل هو من منظميها⁵. إن الذي يتفحص صورة داني في الرواية، لا يجد فرقاً بينها وبين صورة أي شخصية عربية وطنية أخرى في الرواية، وهذا ربما يعود للفكر الذي يحمله الكاتب، كونه يؤمن بالعمل العربي اليهودي المشترك⁶، وبالتالي فلا غرابة أن نرى هذه الصورة الإيجابية، فهو في نظر عائشة

¹ السابق، ص 113.

² السابق ص 221.

³ الرواية، 210.

⁴ السابق، 210.

⁵ السابق، 289.

⁶ السابق، ص 36.

"...رائع وصديق عزيز..."¹، وهو "...ليس يهوديا طبيعيا وخلافا لأبيه الجنرال، رفض التجنيد الإجباري فزجوه في السجن..."². حتى أن عائشة مدانة له بحياة أمها³، فهو الذي أسكت الجنود على الحاجز، بواسطة هويته واسم والده الكبير، عندما نقلت أمها إلى مستشفى هدا سا جبل المشارف⁴.

ولكن المتأمل في الصورة التي قدمها الكاتب لشخصية داني، يرى أنها شخصية سلبية في جانب منها، فعندما جادلته عائشة بما فعله اليهود في الشعب الفلسطيني في قولها "... أبناء شعبك احتلوا بلادي، انتبه، أخذوا 80% من التراب، شردوا الملايين، يقاتلوننا على البقية، يحاولون محو هويتنا الفلسطينية، بينون غيتو جديد، يقمعوننا منذ قيام الدولة، أليس كذلك؟ قال: هذا ليس ذنبي. قالت: هذا ذنب اللي خلفك..."⁵، فعمله مجرد كلام يؤمن به، لا أكثر.

لقد تطورت صورة اليهودي في الرواية في نظر العربي، ووصل به الأمر إلى القتل، فقد قتل الشبان في شفا عمرو ناتن زادا؛ لأنه رش الناس بالرصاص⁶. ويمكن القول إن الراوي/عائشة قدمت صورة تفصيلية جديدة لليهودي الإيجابي أكثر من الصورة النمطية السلبية عنهم، فهو متعلم، ومناصر للعرب ومتعصب لهم ويدافع عن حقوقهم، وتمثل ذلك في شخصيتي أستاذ التاريخ وداني، وبالتالي يتشكل الآخر في الرواية في صورتين، صورة تعبر عن الوجه القبيح للآخر، وصورة تحمل الوجه المتعاطف، كم أن الآخر يتشكل في صورة فردية وليست جماعية.

¹ السابق، ص 28.

² السابق، ص 31.

³ السابق، ص 283.

⁴ السابق، ص 10.

⁵ الرواية، ص 38.

⁶ السابق، ص 315.

2 – صورة الذات العربي:

تبدو العلاقة بين العرب وأنفسهم واضحة في الرواية، وهناك أحكام عامة عنهم، "... علمنا العربي خائف، أنا آسفة ولكن هذه هي الحقيقة، أنا لن أقول لكم تعالوا إلى القدس أو اذهبوا إلى الناصرة ستقولون كلا، هذا تطبيع..."¹. كما قررت عائشة أن العرب يحصرون أنفسهم بالخوف، علما أن الخوف لا يصنع مستقبلا مشرقا، ولا يحرك ساكنا في الشعوب، التي تريد التغيير، فالخوف لا يستطيع أن يصنع إلا ملجأ² وبسببه صار الوطن قبرا كما قال أدونيس³.

وربما ترك والدها مقاومة الاحتلال، وأقسم على ذلك من باب الخوف على بيته وابنته الوحيدة، علما أنه قدم للوطن شبابه، فقد سألت عائشة أمها، لماذا أقسم والدها على ترك مقاومة الاحتلال، أجابت الأم "...قال لي مرارا إنه يربيك مغيرا شكل المقاومة..."⁴ كما يعرض السارد موقفه من عادات المجتمع العربي وتقاليده، وهذا واضح في مواقف عائشة من كثير من سلوكيات المجتمع، ومنها: قضية زواجها من ابن عمها جابر، ففيها الكثير من التخلف العربي⁵، ونظرتها للشهيد البطل، فهي تقدر أباه وتفتخر به، ولكنه - في نظرها - لم يكن بطلا، ونعت أبيها بالشهيد، ضايقها كثيرا "... نحن ندعي البطولة لنرضي مشاعرنا..."⁶. فالأمر يحتاج إلى ضرورة النقد الاجتماعي "لتشخيص وتحليل كل جوانب التخلف في مجتمعنا، فالنقد الاجتماعي لا يقنع بما هو موجود، ولا يستكين إلى ما هو تقليدي، ولكن يبحث ويشخص ويحلل داعيا لتجاوز التخلف"⁷. ثم يدخل الراوي في

¹ السابق، ص 244.

² السابق، ص 255.

³ السابق، ص 266.

⁴ الرواية، ص 68.

⁵ الرواية، ص 74.

⁶ السابق، 66.

⁷ يس، السيد، تشريح العقل الإسرائيلي، ماريوت للنشر والمعلومات، 2000، ص 212.

بيان رأيه في العلاقات بين العرب وأنفسهم على اختلاف تواجدهم وطوائفهم، فيبين رأى عائشة في الدروز، وبخاصة الدروز الذين يخدمون في جيش الدفاع "... صاح بها جندي عربي الأصل، شعرت بالغیظ من الاستفزاز..."¹، وجاءت صورة الدروز صورة سلبية عامة على لسان أم عائشة، عندما كانت عائشة تدافع عن حمها لإبراهيم الدرزي "... إنهم يحملون وصمة عار الدخول في جيش الاحتلال..."².

كما تبين الرواية علاقة العربي مع العربي من خلال موقف عائشة من الدرزي بآبن طائفته الدرزي، وقد بدا هذا واضحا عندما رفض علنا بعض الجنود الدروز الذين يخدمون في جيش الدفاع الإسرائيلي، اقتحام قرية البقيعة، وقال لقائده "... قيدي وخذي إلى السجن، والبعض الآخر دخل أول بيت في طريقه واختبأ عندهم، قائلا: لا أريد أن أقاتل أهلي وناسي وأبناء طائفتي..."³.

نلاحظ أيضا طريقة تعامل الدرزي الجندي مع الفلسطيني/ابن الضفة والدرزي مع ابن طائفته الدرزي، فعندما أوقف جنود حرس الحدود إبراهيم وعائشة في شارع يافا في القدس، وطلب الجندي منهما إبراز هويتهما، كانت الصورة النفسیة التي رسمها الكاتب واضحة من خلال الكلام الذي قدمته عائشة لإبراهيم "... فأعطيتُ الآلة العسكرية هويتي، نظر إليهما، سجل اسمي ورقم هويتي على أوراقه، ثم أعادها إليّ. فتح هوية إبراهيم، ثم نظر إليه متسائلا درزي؟ قال إبراهيم: الحمد لله، أعاد الجندي الهوية له وقال: أنا متأسف خال..."⁴، ولولا وجود إبراهيم في هذا الموقف، لتعامل الدرزي/ العربي/ الجندي/ الفلسطيني مع عائشة/ العربية/ الفلسطينية بطريقة أخرى، يقول "... لو لم تكن معك لعلمتها من تكون..."⁵. ولم يخف إبراهيم - على الرغم من علاقته القوية بعائشة - وجهة نظره بآبن

¹ السابق، 101.

² السابق، 159.

³ السابق، 108 - 109.

⁴ الرواية، ص 211.

⁵ السابق، 212.

عمه الجندي، فهي علاقة قوية، ولا يمكن أن تضعفها علاقته بعائشة، فقد حاولت عائشة أن تقنع إبراهيم بأن ما فعله راجي ابن عمه، هو خطأ يتحمل مسؤوليته إبراهيم بالدرجة الأولى، وهو لا يراعي مشاعرها، أجابها "... إنه ابن عمي يعني أخي..."¹.

كما تظهر العلاقة واضحة بين الجندي/ الدرزي/ العربي والجندي/ اليهودي/ الإسرائيلي في المواجهات، فعندما أراد الاحتلال هدم بيت عائشة، وقام الجنود بضرب المحتجين، لم يحتمل أحد الجنود الدروز أن يرى جنديا يضرب ابن عمه، فهب لمساعدته، ناسيا أو متناسيا المهمة التي أتى من أجلها "... وإذا بجندي يضرب الجندي الآخر بالعصا صارخا، ابتعد عن ابن عمي يا ابن الكلب الواطي الوسخ، ابتعد..."²، وهنا تبرز صورة الدرزي لابن طائفته، ولكننا نرى أن هؤلاء الدروز يعاملون الفلسطينيين على أرض الواقع أسوأ معاملة. نلاحظ أن الكاتب يحاول -ومن خلال إبراهيم في محاوراته مع عائشة- تبرير دخول الدروز في جيش الدفاع "... الأغلبية الساحقة تحصل على رقم شخصي وبعض المنفعة، ويتخلصون من التجنيد بسرعة... يوما ما سنتخلص من التجنيد الإجباري"³. كما تبرز الرواية موقف العرب من العرب أنفسهم، الذين لا حول لهم ولا قوة، في المواجهة، وهم لم يستطيعوا أن يساعدوا طفلا، ففوات الاحتلال صادرت كعك الطفل أمام الجميع، ولكنهم لم يحركوا ساكنا، وبعد ما فعلت ما فعلت في ممتلكات الطفل "انصرفت قوات الاحتلال مع الكعك، ولم يسع الطفل غير البكاء، اقترب منه بعض الناس، ربت أحدهم على كتفه، ضرب آخر كفا بكف وقال عاليا، لا حول ولا قوة إلا بالله..."⁴، وعبارة "وقال عاليا"، لها مدلولها أن الأمة العربية، ومنهم الشعب الفلسطيني، الذي يعول كثيرا على الصراخ والصياح والأقوال، ولكنها، في كثير من الأحيان لا تسعف الناس، ولا تقدم لهم ما يرجون وما إليه يطمحون. لقد ركز الكاتب على الصورة المشرفة للدروز وحاول إبرازها على مساحة

¹ السابق، 216.

² السابق، 292.

³ السابق، ص 110.

⁴ الرواية، ص 193.

النص الروائي، فهذه الطائفة "... أنجبت الشاعر الكبير سميح القاسم الذي أوصل القضية الفلسطينية بواسطة أشعاره إلى كل أنحاء العالم، فمن منا لا يفخر به وبأشعاره التي صفحت التاريخ الصهيوني ورفعت مجد أمتنا العربية إلى السماء ولهذه الطائفة الكثير من المواقف المشرفة التي دحروا بها الصهيونية وأتباعها..¹

صورة الذات اليهودي:

إن رسم صورة اليهودي في الرواية تشكل من خلال تصرفاته وأفعاله في حياته اليومية، وكشف عن مدى التوتر والقلق النفسي الذي يتناسب مع صورته، وبذلك انتقى الكاتب شخصياته اليهودية وفق رؤى معيارية حققت ما سعى إليه، فنجد في الرواية موقف اليهود من اليهود وعلاقتهم معا في مكان واحد، فعندما قررت الحكومة ترك غزة، تعامل الجيش - ومعهم الشرطة - مع المستوطنين بلطف، علما أنهم أخلّوا بالأمن ورفعوا على قوات جيشهم السلاح ، ولكن الجيش طلب منهم وبكل أدب واحترام إخلاء أماكنهم "... طرّقوا على أبوابهم وقالوا لهم، قررت الحكومة الانسحاب من غزة، تفضلوا بالرحيل، سنساعدكم في ذلك، قاتلهم المستوطنون لكنهم احتضنوهم..²

فهذه صورة، يقابلها صورة مناقضة تماما، وطريقة تعاملهم مع العرب، حتى لو كانوا يحملون الهوية الإسرائيلية الزرقاء، فالأمر مختلف تماما". أما على عرب 48 فلا بد من استعمال الرصاص الحي 13 شهيدا سقطوا في أكتوبر 2000، والسبب ليس إلا مظاهرة وإقفال شارع..³

صورة الآخر العربي:

إن تخيل الروائي الفلسطيني لصورته في المفهوم الإسرائيلي يعكس أهمية الحاجة لمعرفة الذات؛ كي تحارب الآخر أو تصالحه، وأهم ما يميز الدراسات التي عنيت بدراسة العربي في

¹ السابق، ص 233-234.

² الرواية، ص 108.

³ السابق، ص 108.

الرواية الإسرائيلية، هو التركيز على الجوانب السلبية، وحالة الصراع بيتن الشعبين، واللافت للنظر أن الباحثين لم يلفتوا إلى الصورة الإيجابية "وهو أمر يمثل الجانب العنيف من عملية شاملة تستهدف تجنيد الدباء الإسرائيليين من أجل العودة إلى مفاهيم السياسة الإسرائيلية ومركزات الفكر الصهيوني"¹.

إن صورة العربي في الذهن اليهودي ثم الصهيوني ومن بعده الإسرائيلي، هي صورة تكاد تكرر في أدبهم، فهي صورة تقليدية نمطية، وهي سيئة، فلا تعطي العربي أو الفلسطيني بعدا إنسانيا، وهذا بسبب العداء المتواصل بين الشعبين. إن الصورة التي رسمتها الشخصيات اليهودية في الرواية للعربي أو الفلسطيني، جاءت باهتة وغير واضحة، وهذا طبيعي؛ لأن حضور الشخصيات اليهودية كانت قليلة جدا، ومع ذلك نلاحظ خوف اليهودي من العربي بشكل واضح في الرواية.

فقد كان البروفيسور ج. ق. يشرح للطلاب، ويعرض لهم صورة لمسجد عثماني، "... ثم أضاف إنها تراثنا جميعا، رفع إبراهيم يده قائلا ليس هذا تراثكم على الإطلاق، من المستحيل أن يصبح المسجد تراثا لليهود. ضجت القاعة، صاح أحد الطلاب حثيخات عربي..."²، فالطالب اليهودي الذي تفوه بكلمات عنصرية ضد العرب، ويمثلهم إبراهيم، لم يستطع أن يقف ويواجه البروفيسور. ق، ج،، وقد طلب ق. ج. من المتكلم أن يقف أكثر من مرة³. وعندما رفعت طالبة عربية يدها وقالت أنا رأيته إنه هذا، وأشارت إلى طالب ما، أنكر بشدة... وقال: إنك مخطئة... أنا لم أقل حثيخات عربي. قال إبراهيم: إن خوف العنصري الفاشي من كشف نفسه هو أفضل لجنة تأديبية⁴.

كما تجلت ظاهرة الخوف من العرب/ الفلسطينيين في مظاهرات البقيعة، التي اعتقل فيها عدد من الجنود، ولكن إسرائيل، وبناء على الفكر المسبق عن العرب "... فقد قامت شرطة

¹ شلحت، أنطوان، شخصية العربي في الفكر الصهيوني، دار ابن رشد، عمان، 1985، ص 13.

² الرواية ص 112.

³ السابق ص 112-113.

⁴ السابق، ص 13.

إسرائيل في ذلك الصباح بأسرع عملية تبادل أسرى في تاريخها، أخلت سراح المعتقلين، ووعدت ألا تعتقلهم..."¹.

الخاتمة:

- تعد الرواية "مقدسية أنا" رواية جريئة في فكرتها وطرحها من الناحيتين الاجتماعية والفكرية، ولهذا عدّها بعضهم رواية تطبيع.
- كان الكاتب كلي المعرفة في روايته، ولكنه سمح للشخصيات الروائية بالحديث عما يدور بأذهانها أحياناً.
- تحمل الرواية هما جماعياً قلما التفت إليه الروائيون الفلسطينيون، وبخاصة في موضوع الصراع العربي الإسرائيلي وهذه الجرأة والمواجهة.
- لقد تنوعت صورة الآخر في الرواية من خلال أبعاد أيديولوجية وسياسية.
- أبرزت الرواية الصورة السلبية بوضوح لليهود، ولكنها أبرزت على استحياء الصور الإيجابية لهم.
- كانت نظرة اليهود للعرب نظرة سيئة باستثناء نظرة بعض الشخصيات المتعاطفة معهم.
- بقي علاء مهنا مدافعاً عن فكرته الطائفية حتى نهاية الرواية.
- أبرزت الرواية التعاطف اليهودي الفردي وليس الجماعي مع الفلسطينيين.
- ناقشت الرواية بعض الموضوعات الاجتماعية وخاصة السلبية منها، مثل الخوف ومفهوم الشهادة، وكان للكاتب رأي واضح فيها.
- أبرزت الرواية دور الجيل المتعلم في عملية الصراع.

¹ الرواية، ص 121.

مراجع الدراسة

- الأسطة، عادل، اليهود في الأدب الفلسطيني بين 1913- 1987، اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة، 1992.
- جويدي، امتثال، شجرة الصبير، بيروت، ط 2، 1975.
- خضر، حسن، مفهوم الآخر " دراسات في الأدب الإسرائيلي "، وزارة الثقافة الفلسطينية، ط 1، 1995.
- دومب، ريزا، صورة العربي في الأدب اليهودي 1911 – 1948، ترجمة عارف توفيق عارف، عمان، 1990.
- عبدالغني، عمر، الفكر الصهيوني بين التصور النمطي والتصور الفردي في الأدب العبري الحديث، القدس، 1991.
- ماضي، شكري عزيز، انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1978.
- مزعل، غانم، الشخصية العربية في الأدب العبري الحديث، القدس، 1985.
- مهنا، علاء، مقدسية أنا، ط الأهلية للنشر والتوزيع ومؤسسة عبدالمحسن القطان، ط 1، 2011.
- يس، السيد، تشريح العقل الإسرائيلي، ماريوت للنشر والمعلومات، د. ط، 2000.
- يورتو، ميشال، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد انطونيوس، بيروت، ط 3، 1966.
- الصحف**
- يعبد طريق التطبيع في الرواية الفلسطينية ، وليد أبو بكر، جريدة الدستور، 2012/9/14.
- قراءة في رواية "مقدسية أنا " لعلاء مهنا دون كاتب جريدة القدس، 2013/2/11.
- صورة اليهودي في رواية مقدسية أنا، مدونة محمد الطحل، شبكة الفصح الإلكتروني، 2010/4/30.